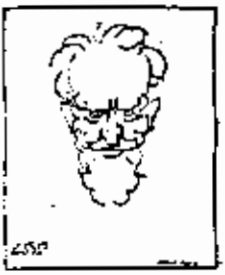

مبدأ قوة الحياة

في فلسفة برنارد شو

من كهوف التشاؤم الى رحب التفاؤل في مصير الانسان

« يجب ان تعيشوا حتى اذا ما تركت
الحياة بل قوة الحياة مدينة لكم »

يبدو لكل من يتتبع أقوال برنارد شو وكتاباته انهُ لا يقتنع بان يكون مؤلفاً مسرحيًّا . ومن الخطإ الفاضح في فهم الرجل أن نحسبهُ كاتب روايات تمثيلية لا غير . فتد كان برنارد شو من نشأته مصلحاً متحمساً . وهذا لا يقتضي عنايتهُ بالفلسفة فقط بل ينطوي على محاولته أن يكون فيلسوفاً . والمرجح ان الذين يحصرون معنى الفلسفة في حدود ضيقة ، ينكرون علينا وضع برنارد شو في مصاف الفلاسفة . وهؤلاء على صواب ان اقتنعنا معهم بان الفلسفة المدرسية هي الفلسفة كلها . ولكن اذا توسعنا في فهم معنى « الفلسفة » على انها كلُّ محاولة لوضع طريقة عملية غرضها ترقية وسائل الحياة فبرنارد شو فيلسوف قحّ

ولا اعلم طريقة لفهم الفلسفة الشاقية (نسبة الى شو) أبلغ من درس مبدإ « قوة الحياة ». ويجدر بنا أن نفهم نشأة هذه الفلسفة قبل تحليل عناصرها . ولقد يكون من أغرب غرائب الاتفاق في الحياة أن تكون فلسفة شو هذه قد بلغت ذروتها في الدرامة التي اجمع النقاد على انها اجل صورة لفنون عبقريته . ونقصد تلك الدرامة العظيمة — بل احدى الدرامات العظيمة النادرة التي انجبها القرن العشرون — « مان وسوپرمان » أي « الانسان وما فوق الانسان ». فالروايات التي تتقدم « مان وسوپرمان » ليست الاّ سلسلة من المحاولات والتجارب. فكأنهُ يحاول بها أن يتعرف الارض التي يسير فيها ويتخير الطريق . لقد مرَّ في طور قلّد فيه ايبسن ، وخرج منهُ واثقاً ان في فلسفة ابسن — الفائلة باننا لا نعرف طريقاً تفضي بنا الى السعادة، بل ان كل الطرق تبعدنا عنها — شيئاً كثيراً مما يستحق العناية والدرس. على ان شو لم يقنع في حياته قط بموقف متشائم كهذا . وعليه لا بدَّ من ان نتصوَّر تصوُّراً سلسلة افكاره التي حدت به الى كتابة « مان وسوپرمان » . قال : اذا كان الانسان لا يستطيع ان يجد طريقاً تفضي به الى السعادة او ان يجتنب طريقاً توصلهُ الى الشقاء ، فليس أمامهُ الاّ الاعتصام بحبل الشجاعة. ولا بدَّ لهُ من ان يجد طريقاً اخرى . فشو لا يسلّم

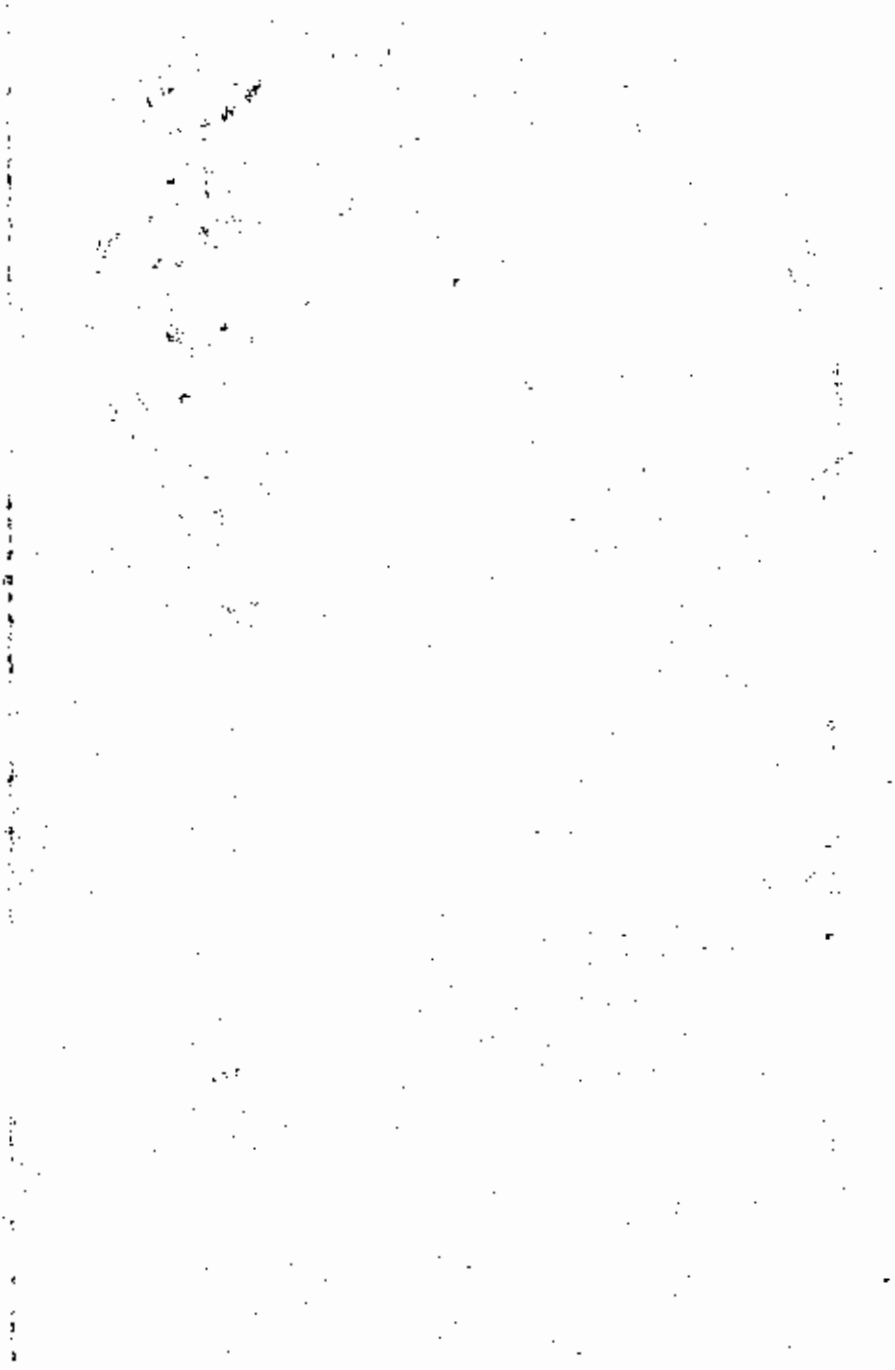

جورج برنارد شو في أحدث صورة لهُ

مقتطف | كنون ١٩٣١ — امام الصفحة ١٣٥

قط بالتحالف مع الفلاسفة القانطين المتشائمين ، الذين انما عاشوا ليبرهنوا على أن الموت هو النهاية الوحيدة المرجوة للحياة. وهو كذلك لا يرفع صوته ، كما فعل توماس هاردى ، في ساعة قنوطه من الحصول على السعادة ، غاضباً حانقاً على الآلهة . ولكن بدلاً من كل هذا يخطر له فكر طارئ . إذا كان الانسان لا يستطيع أن يجتنب الشقاء ، أو إذا كان لا يستطيع الوصول الى السعادة ، فالحل الوحيد هو الثورة على فلسفة معقولة من وراء هذا التشاؤم الظاهر . لابدَّ للانسان من أن ينظر الى المسألة من وجهة أخرى . وعليه ألاَّ يكتفي بالتسليم بتحتم البؤس والشقاء ، عليه ألاَّ يقنع باعتقاد ، يصم في صميمه « العناية » بالجور. ليحسب نفسهُ محاولة واحدة من محاولات الطبيعة . ليتبر انهُ سوف يكون ضحية ترتقي عليها الاجيال المقبلة ، معتبرة باخطائه ، متعلمة الحكمة من شقائه وحقه

وهكذا يمضي شو ، في رفق وخفة لمس ، من تشاؤم لا يفضي الاَّ الى القنوط ، ثم يخلع عن منكبيه معطف ابسن ، فتنفجر قواه المبدعة في درامة « مان وسوپرمان » . في هذه الدرامة ، يلمُّ شو كل خيوط معتقداته الفلسفية ، وينسج منها ثوباً فلسفيًّا ، سداهُ ولحمتهُ ، قوة الحياة

وفلسفة « قوة الحياة » فلسفة معقدة ، يتعذر بسطها في مقال قصير ، إلاَّ بتتبعنا لفصول الرواية ونشوء الفكرة فيها من مشهد الى مشهد ، ومن فصل الى آخر . ومما يجدر بنا الاشارة اليه هنا ، ان شو يعتقد ان المرأة في مسائل الزواج — هي التي تجدُّ في طلب الرجل — وهذا اسلوب برَّاق يقول به شو ان « قوة الحياة » تستخدم المرأة لتخليد النوع . وهذه النظرة هي اساس القصة في الدرامة التي بين ايدينا

والحديث الذي يفضي بشو الى ابداع « فلسفة قوة الحياة » ينشأ من تبرّمه . فها هو ذا ينظر الى الحياة فلا يرضى عما فيها . ففي كل ناحية يرى الحياة تسرف في انفاق الحياة من دون طائل . فهو يرى في الجهة الواحدة ، كلَّ الممكنات العظيمة التي تنطوي عليها طبيعة الانسان — اليس الانسان مخلوقاً في صورة الله ، آلة معقدة ، تملك في صميمها ، القوى الجسدية والعقلية والروحية ، التي لا تحدُّ — وفي ميدان الخيال يلتقي شو بالشاعر ، فيتطلق بلسانه ... « ما أعجب الانسان » ثم تنتابه الكآبة الشافية لحظة فيقول ... « نعم ولكن ما أكثر اخطاءه »

ولكن اذا كان الانسان كثير الاخطاء ، فماذا نقول في الاله ؟ ماذا نقول في « قوة الحياة » التي خلقت الانسان ؟ ان شو لا يردُّ عن هذين السؤالين . ولكن فلسفة « قوة الحياة » هي ردُّهُ البليغ

ويمكن الوقوف على خلاصة هذه الفلسفة في الحوار الدائر بين دُن جوان والشيطان .

لدن جوان يسلّم من البدء بان الحياة كفاح ولكنهُ لا يسلّم بان الكفاح مجرَّد من الامل بالنصر. فهي كفاح الغرض منهُ الانتهاء الى فوق . يبدأ قولهُ بان الانسان اكبر أملاً في فهم اغراض الحياة ومرادها ، من الوحوش ، لانه أذكى منها . خذ مثلاً الاجيال التي كانت في عصرها اضخم من الانسان — الجاثيريوم والاكتيوتورس — وثانيهما كان يستطيع ان يجتاز سبعة فراسخ في قفزة واحدة — ما كان مصيرها ؟ انها ليست اكثر من آثار متحجرة في المتحفات . هذه الحيوانات الضخمة الحيارة — بقوتها الجسدية العظيمة — وشهوتها الملحة للحياة — ورغبتها في عمل عمل تكتسب به رضا الحياة — قد بادت كلها ولم يبق منها الا آثار ! وما السبب في ذلك؟ ان دن جوان يردُّ على مسائله هذه ردًّا بسيطاً يتصف به عادة المفكر السطحيُّ فيقول : لقد بادت كلها لانها لم تملك ادمغة كافية لتعلمها كيف تعيش . وهكذا قضت هذه الحيوانات على نفسها ، سواء شاءت ذلك ام لم تشأ.

هكذا يبدأ الحوار في موضوع « قوة الحياة » . وإلى هنا ، يستطيع الانسان ، بفضل دماغه الكبير وعقله ، ان يفهم المغزى ويطبقهُ . ولكننا هنا فقط نجد سرَّ الموقف الذي يقفهُ شو . نسلّم بأن للانسان ذكاء اسمى من ذكاء الحيوانات. ولنسلّم بأن الحيوانات التي كانت قوتها الجسدية اعظم جدًّا من قوة الانسان قد انقرضت . ولنسلّم كذلك بأن قوة الحياة تستعمل الانسان لتجربة تجاربها به ، لعلهُ يتعلم في المستقبل ، غاية « قوة الحياة » وهدفها — فاذا سلّمنا بكل ذلك تلنا الى هنا تنتهي فلسفة شو !

كلاَّ ، هنا تبتدئ فلسفته

ويردُّ الشيطان على دعوى « دن جوان » بأن الانسان أصلح لفهم اغراض الحياة، بسبب دماغه فيقول : إذا صحَّ ان للانسان دماغاً ، كما تقول يا دن جوان ، فهل هذا الدماغ يعصمهُ من إبادة نوعه ، كما فعل فقد الدماغ في الحيوانات الثديية التي أبادت نفسها . تعال معي فأخبرك بما رأيت في رحلتي حديثة الى الارض

هنا نصل الى التهمة التي يوجهها شو الى الطريقة التي يجري عليها الانسان في استخدام عقله ، فيشوّه اغراض قوة الحياة تشويهاً

والتهمة الاولى الموجهة الى الانسان لا تقوم على انهُ لا يستعمل عقلهُ ، بل تقوم على انهُ يستعملهُ في فن التدمير . في فن الحياة لا يخترع الانسان شيئاً واما في فن الموت فيخترع كل شيء. انهُ يستخدم نبوغهُ للتفنن في إثارة الحروب . ولكنهُ يمتنع عن استخدامه للارتقاء في تصوير الصور وكتابة الكتب وابداع الموسيقى . انهُ لم يرتقِ الا في ميدان التخريب . انهُ لم يتقدم في وسائل التغذية بل هو يأكل ويشرب ما كان يأكلهُ اسلافهُ ويشربونهُ من آلف

هنريك ابسن

١٨٢٨ — ١٩٠٦

شاعر ومؤلف مسرحي نرويجي تأثر به شو في مطلع حياته كمؤلف مسرحي

مقتطف أكتوبر ١٩٣١ أمام الصفحة ١٣٧

سنة . ثم يقول شو، وعلى القول مسحة من السخرية، يأكل الانسان ويؤلف ويطرب كما كان اسلافهُ يأكلون ويشربون ويطربون من الف سنة ، ولكنه اذا خرج ليحارب اعداءه، لن يستطيع احدٌ أن يتتبع سرعة ابداعه وارتقائه في بناء ادوات التدمير

وهكذا تتبع رقعة التهمة بأن الانسان يسيء استعمال عقله . ففي المصانع آلات في استطاعة كلب بارع ان يستعملها . آلاتهُ الطابعة ، ودرّاجاتهُ ، وماكناتهُ — ادوات تنطوي على براعةٍ وإبداع. ولكنهما لا يذكران ازاء الابداع والبراعة، المتجليين في مدفع مكسيم ، وطربيد الغواصة ، والقنبلة الشديدة الانفجار ، والبندقية السريعة الانطلاق

هنا نصل الى المأزق في الدراما ! وإذ يتوقف الشيطان قليلاً في توجيه التهمة يلتفت الى دُن جوان ويقول : ان قوة الحياة التي تفاخر بها — وهذا النشاط العجيب الذي يبدو في اعمال الانسان ،وتلك المبتفقات من دماغهِ ، ماكانت نتيجتها ؟ ليست قوة الحياة الا قوة الموت ، لا اكثر ولا اقلّ . ان الانسان يقيس قوتهُ بمقياس غريب ، ولا يحسبها قوة الا اذا كانت مدمّرة . هنا يتحول التنديد بآلات الانسان المدمرة ، الى بحث نفسي عميق . فيبرهن شو بلسان شيطانهِ ان كل الوسائل التي يقصد بها تحسين النوع ، ليست الا قناعاً لاعمال التدمير . ثم يتمادى في تنديده بالانسان الكثير الاخطاء — بريائه ، وسعيه وراء اغراضه الخاصة ، وامتناعهِ عن الاصغاء الى الدعوة التي توجهها « قوة الحياة » وإصرارهِ على التقدم في دائرة ، وعنادهِ في تجاهل الورطة التي يخنقها بيديه

ولكن ورَ التفاؤل، في الحوار ، ابداً وتر حسّاس . فالانسان لا يزال في طور التجربة

لنعد الآن الى بعض التهم الاخرى الموجهة الى الانسان ! ما دياثة الانسان — يقول الشيطان هي ليست شيئاً قائماً على التسليم بقوة عليا . ولا علاقة لها قط ، برعاية الانسان للانسان. إن هي الا عذرٌ يتذرع به الانسان عن بغضهِ للشيطان . وهكذا يجيب الشيطان نفسه في الحوار فيقول : « ليست دياثة الانسان الا عذراً لكرهي »

وما شرائع الانسان ؟ انها ليست قائمة على الرغبة في العدل . ولا على رغبة في الاصلاح. إن هي الا عذر يمهد للانسان ، التمادي في شهوتهِ للتدمير . فالانسان يطلق الانسان ثم يأتي بالشرائع لتسويغ ما فعل . وهكذا يمضي الشيطان في توجيه التهم . فلم يبقَ للانسان شيئاً يرتكز عليه . ما آدابهُ ؟ نظام من القواعد غرضها المحافظة على اللياقة الاجتماعية . وما فنهُ ؟ عذرٌ للتمتع بالتحديق الى صور القبح !

الى هنا ، يبدو لنا ان شو راسخ الاعتقاد بأن الانسان قد احلّ قوة الموت محلّ قوة الحياة ، وانهُ يرى الانسان منفقاً كل قواه في عبادة الموت ، مريقاً قوى الحياة ،لا دمعة ولا

حسرة عليها . وفي خطاب الشيطان فكرة بسيطة ، ولكنها بليغة في وصف هذا الميل ، نتناولها فيما يلي ، لا لما تنطوي عليها من المشكلة الاجتماعية ، ولكن لأن الحادثة في نظر شو ، هي منتهى ما ينتظر من عبادتنا للموت ، بدلاً من عبادتنا للحياة ، يقول الشيطان : —

رأيت رجلاً يموت . كان بناء طويل لديه ذاسعة أولاد . فترك سبعة عشر جنيهاً موفرة في ناديه . فأنفقتها زوجته كلها في مأتمه ، ثم ذهبت مع أولادها الى ملجإ . ما كانت تنفق بسبع بنسات على تعليم أطفالها . فحكم عليها ان تعلمهم تعليماً مجانيًا . ولكنها انفقت كل ما تملك على الموت . ان خيال — هؤلاء الناس ، ليلتهب ، وقوام لتنشط عند التفكير بالموت — انهم مجبونهُ . وما هو اشد فظاعة من ذلك ، انهم يسرون به

فكيف التفت الى حياة الانسان وجدت تمجيداً للموت والتدمير . خذ مثلاً الآداب . فأكثر الاساليب الفنية في آداب الامم هي المأساة ، الرواية التي يقتل كل شخص في نهايتها . وقد بلغ من شدة تهافتنا على تقدير عظمة الانسان اننا اصبحنا في خطر من حسبان قدرته على التدمير مثال العظمة المجيد . ماذا نقرأ في الاسفار القديمة ؟ نقرأ عن زلازل وأعاصير واوبئة ، ومنها نخرج بقوة الله وعظمته ، وضعف الانسان وحقارته . اما الآن فاننا نقف على نقيض هذا . نرى جماعة من الناس تفتك بغيرها وتدمر بلادها . فنستنتج ان الفاتحين المنتصرين عظام ، وان المغلوبين المقهورين حقيرون

الى حدّ هنا قدمنا امثلة من البراهين والتهم التي انهال بها الشيطان على دن جوان ، مبيناً ان القوة المسيطرة على الارض ليست قوة الحياة بل قوة الموت . وهكذا نصل الى ذروة الاتهام ، اذ يقول انهُ لما عجزت الطبيعة عن استنباط وسائل وادوات كافية للتدمير ، استعملت الانسان حليفاً لها ، وجعلته يستنبط هذه الادوات

هذا هي دعوى الشيطان . وهي مزعزعة للانسانية ، ولكنها ليست حكماً نهائيًا . فان شو ، بالبراعة التي يتصف بها كل محاور ماهر ، يصور الصورة بأتم الالوان ، حتى اذا بدا طيف التفاؤل بدا لامعاً براقاً . فاما اذا سلمنا ان الانسان قد اساء فهم اغراض الحياة افظع اساءة ، فليس ثمة سبب للقنوط . إذ لا نهاية للتجارب التي تجربها الحياة بالانسان

وإذ ينتهي الشيطان من كلامه ينقدم « دن جوان » للدفاع فيقول : لا يسأ الانسان بكل ضروب التهجم التي تنهال عليه ، ما دام لا يدعى « جباناً » . وبالتغلب على « الخوف » يبدأ الانسان يرى قبساً من غرض الحياة الصحيح . والانسان لن يتغلب على الخوف ، الاّ إذ تصوّر انهُ يكافح في سبيل غرض كوني — اي متى تحقق ان شخصهُ ليس غرض الحياة النهائي بنفسه ، وانهُ ليس سوى مفسّر لرغبات الحياة . فاذا قلّل من التفكير بنفسه ، اصبح اقدر على

استجلاء ما تريدهُ « قوة الحياة » ان يفعل

وفلسفة قوة الحياة ، التي يقول برنارد شو ، تفضي بنا ، الى الصورة التي يرسمها السوبرمان . ان شو لا يحدد لنا اوصاف السوبرمان . فقد يكون شبيهاً بسوبرمان الفيلسوف نيتشه . ولكن لما كان رجل نيتشه ، غير روحيٍّ في صميمه ، فالراجح انهُ يختلف كلَّ الاختلاف عن رجل شو ، على ما يبدو لنا من صفاته ، في خلال الاحاديث التي تفضي الى خلقه

ولنلخص الآن مبدأ قوة الحياة في فلسفة برنارد شو . ان ميدان الانسان فهم رغبات « قوة الحياة » التي تسيطر عليه وتحكمهُ . وقوة الحياة تجرب التجارب بالانسان ، لانها تريدهُ ان يتعلم بالاختبار ، فهي لا تستعمله استعمال دمية او بوق . ولقوة الحياة مُثُلٌ عليا تحاول ان تحققها ، ولكن الانسان يفشل في تحقيقها مرة واخرى . وبعد تجارب عديدة متوالية يتعلم الحكماء فيدرك رغبات قوة الحياة ، ويخضع لها ، وهكذا يصبح انساناً اعلى في سلم الارتقاء من سلفه — اي انهُ يصبح سوبرمان . وهكذا يصحُّ ان نضع برنارد شو في مصاف الفلاسفة المتفائلين رغم ما يبدو في نقده اللاذع للاجتماع ، لانهُ يعتقد ان الانسان يملك القوة الكافية ، التي تستطيع ان تنشئ منه الرجل المتم لارادة قوة الحياة على الوجه الاكمل

وقد لخصت لدائرة المعارف البريطانية في طبعتها الاخيرة عقيدة برنارد شو المتقدمة فباترجمتهُ :

الالهُ او قوة الحياة قوة غير كاملة تسعى الى الكمال . فلو انها كانت عالمة بكل شيء وقادرة على كل شيء لما صحت بوجود نقائص في خلائقها . كما لا يسمح والد باصابة ابنائه بالامراض اذا كان يستطيع ان يمنع ذلك — وقد شغلت هذه القوة ما مضى من الزمن في محاولتها خلق ادوات تساعدها في سعيها للوغ الكمال . فلما وجدت ان هذه الادوات لا تمكنها من تحقيق الغرض بغيتها . بهذا تستطيع ان تعلل اندثار جبارة العصور الغابرة من الحيوانات . ذلك ان قوة الحياة وجدتها غير قادرة على ادراك غرضها ، وعلى الانفلات من قيود بيئتها وبنائها الجسماني . فخلقت اداة جديدة اسمها الانسان — وهذه الاداة لا تزال في دور التجربة . وعليه يحذر شو الانسان بانهُ اذا خاب في تحقيق غرض قوة الحياة صاغت نوعاً به وبذته كما نبذت « الموت » من قبله . ويلخص هذه العقيدة في قوله « يجب ان نعيشوا حتى اذا تم كانت الحياة ، بل كانت قوة الحياة مدينة لكم »

وقد وُلد جورج برنارد شو في دبلن عاصمة ارلندا في ٢٦ يوليو سنة ١٨٥٦ فبلغ الخامسة والسبعين في الصيف الماضي ومنح جائزة نوبل سنة ١٩٢٦ فوهب قيمة الجائزة فوراً — وهي نحو ٧٠٠٠ جنيه — الى المؤسسة الانكليزية السويدية لتنفقها في اذاعة الادب السويدي — والسويد وطن نوبل صاحب الجوائز المعروفة باسمه — في البلدان الناطقة بالانكليزية